

السيدة سكينه بنت الحسين

الأستاذ سعيد الديوه جي

- ٣ -

صانها

ولئن ظهرت سالونات فتيات الطبقة الأرستقراطية في الغرب
حوالي القرن الثامن عشر، فقد كانت هذه سالونات معروفة
في الأندلس قبل ذلك بقرون. فكان سالون « ولادة بنت
المستكني » بمجمع العلماء والشعراء وأهل الفن والأدب. وهذه
السالونات كانت منتشرة في المدينة منذ القرن الأول الهجري.
والذي نراه أن أزل ظهورها في الشرق كان في المدينة المنورة
على عهد الدولة الأموية، وأول من سن هذا هي السيدة سكينه،
ثم تبعها بعد ذلك سيدات قريش

امتازت ندوة سكينه بفخامتها وجلالتها، ذلك لأنها ندوة
سكينه التي نعرف أديبها الرفيع وعلمها وظرفها ومروءتها وميلها
إلى تشجيع كل نابغ، والأخذ بيد كل سائر، تهديهم الطريق
وتدلل لهم العقبات، وترشدهم إلى مواضع الضعف في علمهم
وأديبهم وفهمهم. وفي بيتها غرف للانتظار وأخرى للضيافة يتراحم
فيها الشعراء والأدباء والفقهاء ورواة الحديث والمفنون. وقلمها
كان يمر بالمدينة أمير أو شريف أو نابغ أو عالم إلا ويبرج إلى
هذه الندوة عش الأدباء وكعبة العلماء والفقهاء

وكم اجتمع الشعراء ببابها والناس حولهم يطلبون الإذن منها
لينشدوها أشعارهم أملاً في صلتها أو طلباً لإبداء رأيها. وكم انتظر
الشعراء ببابها أياماً حتى يؤذن لهم. والشيء المعتاد عند أهل
المدينة هو أن يترددوا إلى ندوتها لينشاهدوا مباراة الشعراء فيها،
أو الحلقات العلمية التي تعقد. أو مجالس رواية الحديث التي تدور،
وكانت السيدة سكينه تشارك في هذا كله من وراء حجاب بحيث
ترام ولا يرونها، يحف بها جواربها اللاتي يروين الأحاديث
ويحفظن الأشعار

اجتمع الفرزدق وجبريل وجميل وكثير ونصيب في موسم
الحج. فقال بمضهم لبعض: لا يجتمعون في مثل هذه الساعة،
فهلما نعمل شيئاً نذكر به في الزمان. فقال جبريل: هل لكم

أن نسلم على سكينه بنت الحسين فلعلها أن تكون سيباً لما أردتم.
قالوا: نعم الرأي. وانطلقوا فاستأذنوا. فخرجت جارية وأعدت
مولاتها بقدمهم. فأذنت لهم فقصدت حيث ترام ولا يرونها
وتسمع كلامهم. وأخرجت إليهم جارية وضيئة قد روت الأشعار
والأحاديث، فقالت: أيكم الفرزدق؟ قال: أنا. قالت:
أنت القائل:

ها دلتاني من ثمانين قامة كما انقض باز أقم الريش كاسره
قال: نعم. قالت: ما وفقت ولا أصبت. أما آيست من تمر يضك
بعودة صدق محمود؟ ما دعاك إلى إقشاء مرك وسرها؟ أفلا سترت
على نفسك وعليها؟ خذ الألف درهم وانصرف. ثم دخلت
وخرجت، وقالت: أيكم جرير؟ قال جرير: هأنذا. قالت:
أأنت القائل؟

طرفتكم صائدة القلوب وليس ذا وقت الربة فارجمي بسلام
قال جرير: أنا قلته. قالت: فأ أحسنت ولا أجملت ولا صنعت
صنع الحر الكريم حين رددتها، وقد تجشمت إليك هول الليل.
أفلا أخذت بيدها ورحبت بها وقلت لها « نفسي فداؤك فادخلي
بسلام. خذ هذه الألفين والحق بأهلك. ثم انصرفت إلى مولاتها
ثم عادت فقالت: أيكم القائل:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النشاء الصنار
بنفسى كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتظار
قال نصيب: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت ولا كرمت،
لأنك صبوت إلى الصنار وتركت الناهضات بأحالمها. خذ هذه
السبعمائة درهم فاستمن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها ثم عادت
فقالت: أيكم القائل:

وأعجبني يا عثر منك خلائق كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ودفعك أسباب التي حين بطمع
وإنك لا تدري كريماً مطلقه أيشند إن لاقاك أو يتضرع
قال كُثير: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت. خذ هذه
الثمانمائة درهم فاستمن بها. ثم انصرفت إلى مولاتها ثم خرجت
فقالت: أيكم القائل:

لكل حديث ينهن بشاشة وكل قتيل ينهن شهيد
يقولون جاهد يا جميل بغزوة وبأي جهاد غيرهن أريد
وأفضل أيام وأفضل مشهد إذا هيج بني يوماً وهن قعود
قال جميل: أنا قلته. قالت: غزلت وأحسنت وكرمت

من عاشقين تواسلا وتوعكنا ليلاً إذا نجم الثريا حلقت
بانا بأنهم ليلاً وألذها حتى إذا وضح النهار تفرقا
قال : نعم . قالت : ألا قال « حتى إذا وضح النهار تعانقا » .
ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذي يقول :

فيا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لا يخني على كلامها
قال . نعم . قالت . رحم الله صاحبك . إنه كان صادقاً
في شعره ، وكان جميلاً كاسمه . فحكمت له ، ورضي الجميع بالحكم

صبرها للفناء

وللسيدة سكينه شعور رقيق وحب للجمال - وهل يحب
الجمال إلا الجميل - هي جميلة في صورتها ، جميلة في صوتها ، جميلة
في نفسها ، وجميلة حتى في تفكيرها وتقدها . ففاض هذا الجمال
من روحها الطيبة الطاهرة ، وغمر ندوتها ، وجعلها معرضاً
للفن والجمال .

وما الفناء إلا مظهر من مظاهر الجمال الروحي الذي تجيش به
الأنفس فهتز له القلوب فترده أحياناً .

كان يعجبها الفناء وتهتز له . وكان الغنون يقصدون صالونها
ويعرضون فيه ألحانهم الجديدة وأصواتهم المبتكرة التي لم تكن
معلومة عند العرب . وكان « الفريض » مولاهم بلازم هذه
الندوة ويشرف على مرئادها من أهل الفن . اعتنت السيدة
سكينه بتربيته وأسلمته إلى المغنين وما زال يسمو أمره حتى بلغ
في الفناء ما بلغ .

وهذا « حنين المغني العراقي المشهور يشد الرحال إلى المدينة
النورة تلبية لدعوة زملائه المغنين فيها . ولما كان على مرحلة منها
ازدحم الناس لمشاهدته - فلم ير يوماً كان أكثر حشراً ولا جمماً
من يومئذ - وأمل كل سرى وشريف أن يحل حنين ضيفاً
عنده . ولكن كل شرف دون شرف السيدة سكينه ، ومن له
من الشرف والمروءة مثل ما لها ؟ عزج حنين إلى دارها ليسلم
عليها ويستأذنها في الفناء عندها قبل كل أحد . فأذنت له
بالدخول . ثم أذنت للناس إذناً عاماً وأقبل أهل المدينة كما دعتهم
إلى صالونها ليسمعوا أنغام حنين ، غصت الدار وصعدوا فوق
السطح وأصرت لهم بالأطعمة فأكلوا ثم ابتدر حنين بمنى :
هلا بكيت على الشباب الذاهب . وكففت عن دم المشيب الأيب

وعففت ، أدخل . فلما دخل سلم . فقالت له سكينه : « أنت
الذي جمعت قتيلتنا شهيداً ، وحدثنا بشاشة ، وأفضل أيامك يوم
تذب عنا وتدافع ، ولم تعد ذلك إلى قبيح ، خذ هذه الألف
درهم وابسط لنا العذر ، أنت أشعرهم »

على أن هذا التبصر بالشعر وفنونه والآخذ الدقيقة على
الشعراء لم يكن ليتبها لغير سكينه ، فقد كان لها فوق ذكائها
التوقد ، من عوامل الوراثية من والديها ما ساعدها على ذلك .
فجدها سيد فصحاء العرب بمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وأما بدوية نشأت في البادية وتلقت الفصاحة عن شعرائها
وبلغائها وهي شاعرة رقيقة . ناهيك عن محيطها الذي نشأت به
وهي المدينة النورة عش الأدياء والشعراء ، ومنشأ الغزل الإباضي
الغفيف - كل هذه العوامل أثرت في السيدة سكينه وجعلتها تفوق
بنات قريش في بصرها الثاقب ورأيها الصائب وأدبها الرفيع

تري رواة الشعراء يختصمون وكل يفضل صاحبه فإذا جدال
وإذا خصام وينشدون حكماً صائباً بقدر أن يوفق في مثل هذا
الموقف المخرج فيقضى لفحل على فحل دون خوف أو حذر
أو تعصب . ومن لهم في مثل هذا الموقف ؟ وأنى لهم ذلك الحكم
الواسع . الاطلاع على أشعار العرب وأنسابها وأخبارها ليوفق
في حكمه ؟ ومن يمرض نفسه لتهم جرير أو لفحش الفرزدق
أو لهجو الأحوص . هذا ما لا يجروء عليه أحد . ولا يتبها لغير
« السيدة سكينه » . اجتمع بالمدينة رواة الشعراء جرير ونصيب
وكثير وجميل والأحوص فأدلى كل منهم أن صاحبه أشعر
وتراضوا بأن يحتكوا إلى سكينه بنت الحسين . فقصدوا ندوتها
وعرضوا عليها الأمر فأذنت لهم . فدخلوا . قالت لصاحب جرير :
أليس صاحبك الذي يقول :

طرتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجى بسلام
وأى ساعة أحلى للزيارة من الطروق ؟

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذي يقول :
أهيم بدعد ما حبيت فإن أمت فوا حزناً من ذايهم بها بعدى
كأنه يمتنى لها من يتمشقها بعده ألا قال :
أهيم بدعد ما حبيت فإن أمت فلا صلحت دعدلدى خلة بعدى
ثم قالت لراوية الأحوص أليس صاحبك الذي يقول :